المبحـــث الثـــــــاني

أنواع الاعتذار من حيث الســـــبب

الإنسان إما أن يعيش مع نفسه، أو مع غيره، وهو معرض في عيشه للخطأ، ولا يعني ذلك ترك المخالطة، بل حسن المتاركة بعد الورطة في فعل كان، أو قول، أو نسيان، أو بطلب مالا يليق، فيستفرغ الإنسان تلك السقطات والأخطاء بالاعتذار، فبذلك يعتاض من الذم حمداً، أو يستبدل النقص حمداً.

المطلب الأول:الاعتذار من فعل:

يتعدد منشأ الأخطاء في الأفعال، بتنوع دوافع الفعل ، والظروف المحيطة بالموقف، وعلى أثر ذلك يختلف الاعتذار.

فموسى عليه السلام حين أنجاه الله وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدهم جانب الطور الأيمن، وتعجل موسى إلى ربه، وأقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثره[1]، فعاتبه الله على ذلك، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾[طه:83] ، فقدم موسى عليه السلام اعتذاره بأنهم بالقرب مني، واصلون بعدي، وما تقدمتهم إلا بخطى يسيرة، يقول السمين الحلبي:" فاعتلَّ بأنه لم يوجد مني إلا تقدُّمٌ يسير، مثلُه لا يُعتدُّ به في العادةِ ولا يُحتفل به، وليس بيني وبين من سبقتُه إلا مسافةٌ قريبة، يتقدَّمُ بمثلِها الوفدَ رأسُهم ومقدمتُهم"[2]، وأني لم أستعجل مخالفة لأمرك، ولا عصياناً لك، إنما مبادرة إلى رضاك، ومسارعة إلى الميعاد، وشوقاً للقياك، وذلك شأن الموعود بما يسُرُّه، يود لو ركب أجنحة الطير،

---

[1] ينظر:جامع البيان(18/ 349).
[2] الدر المصون (8/ 87).

ولا أسر من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ٨٤﴾[طه:84].

يقول الراغب الأصفهاني وغيره من المفسرين:"أورد ذلك على سبيل الاعتذار إبانة أنه قصد فعلا محموداً، وإن تحرى العجلة فيه، ومن قصد فعلا محمودا فقد يعذر في وقوع ما يكره منه".[1]

فاعتذر موسى عليه السلام عن خطئه في الاجتهاد، وراعى في ذلك أدق الألفاظ لتجلية المعنى في المقصود، فقال (إِلَيْكَ)، أي عجلتي كانت إليك، وأنت القريب إلى نفسي آنس بكلامك، والكلمة الثانية هي (رَبِّ) أي القائم على نفسي، ومن صنعتني على عينك فإني أسارع إلى من صنعني على عينه[2]، وراعى في خطابه الأدب مع الله حينما قال(أُولاءِ) ولم يقل (هؤلاء) لأنه من سوء الأدب أن تستخدم أداة التنبيه في خطاب الله عز وجل، كما استخدمها المشركون، يقول الشعراوي:" لذلك نلحظ هذا الأدب في خطاب نبي الله موسى – عليه السلام – فيما حكاه عنه القرآن: (قَالَ هُمْ أولاء على أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى) [طه: 84] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عز وجل، ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء:(رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا ..) [الأعراف: 38] (رَبَّنَا هؤلاء شُرَكَآؤُنَا) [النحل: 86] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه."[3]

ولما كانت عجلة موسى عليه السلام في لقاء ربه، السبب الذي اعتذر منه إلى الله، كان من المناسب الإشارة إلى العجلة في أمور الخير، هل هي مذمومة أم محمودة؟

---

[1] ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني (2/ 809)، إرشاد العقل السليم(6/ 34)، التفسير المنير (16/ 263).

[2] ينظر: زهرة التفاسير (9/ 4766).

[3] تفسير الشعراوي (18/ 10985).

العجلة في أمور الخير وردت بلفظ المسارعة، ولم ترد بلفظ العجلة، فالمسارعة البدار إلى الأمر في أول وقته، والعجلة البدار إلى الأمر قبل أوانه،ومن ذلك:

امتداح الله الأنبياء المتقدمين بقوله سبحانه: (إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ)[الْأَنْبِيَاءِ:90]، وقد أمر سبحانه بالمسارعة في قوله:(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) [سورة آل عمران:133] كما ورد في السنة فضل المسارعة إلى الصلاة وأدائها في أول وقتها وذلك في حديث أم فروة قالت: سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل؟ قال: (الصلاة لأول وقتها).[1]

وفي المقابل نجد أن لفظ الاستعجال لم يرد في القرآن في موضع مدح أو ثناء:

قال تعالى: (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعجل أثناء تلقي القرآن من جبريل عليه السلام خشية النسيان، فأخبره الله عز وجل أن الأمور لا تحصل إلا بتوفيقه سبحانه وإعانته، فاعتمد على الله واترك التعجيل.

كما ذم الله المشركين بطلب العذاب قبل وقته، فجاء التعبير عنه بالاستعجال، قال تعالى:(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)[سورة الأنعام: 58]، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة.

وحينما رجع موسى عليه السلام إلى قومه ممتلئا غضبا وغيظا عليهم، لعبادتهم العجل من بعده عاتبهم وقال:(أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)،حيث وعدكم بإنزال الكتاب، فبادرتم برأيكم الفاسد إلى عبادة العجل، فعبّر عن فعلهم القبيح بالاستعجال وعدم الصبر لميعاد الله.[2]

---

[1] أخرجه الترمذي (كتاب الصلاة،باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل، حديث: 170)، وصححه الألباني.

[2] ينظر: لطائف الإشارات (2/ 502)،مفاتيح الغيب (8/ 334)، لباب التأويل (2/ 118)، اللباب في علوم الكتاب (19/ 558)، البحر المديد (3/ 462).

وبعد أن وقفنا على اعتذار موسى عليه السلام لربه عز وجل، نقف على اعتذار موسى عليه السلام لفرعون في موقف متباين، وذلك حينما اعتذر موسى عليه السلام لفرعون أمام اتهاماته وأسئلته الهازئة الساخرة، عن فعلٍ جهل فيه وضل عن الصواب: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ٢٠﴾[الشعراء:18. 20]

ففرعون يريد أن يمتن على موسى عليه السلام بتربيته في قصره أيام طفولته، ومع ذلك لم يرع موسى تلك النعمة بل أنه قابلها بقتل رجل من قوم فرعون، وكان فرعون يشير بذلك لموسى أنك كفرت بما قدمت لك من نعمة أيام طفولتك، ثم كفرت مرة أُخرى بأُلوهيتي، فدعوت إلى عبادة الإله الحق، فيتمعن موسى عليه السلام خطاب فرعون، ويحدد الخطأ في سلوكه من قتل القبطي، ويعتذر منه ويعترف أنه كان عن جهل وسفه، ويترك ما كان يؤرق فرعون من كفر بألوهيته[1]، يقول ابن أبي حاتم قوله تعالى: "(وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) أي من الجاهلين، قال وفي بعض القراءات (وأنا مِنَ الْجَاهِلِينَ) فإنما هو شيءٌ جهل فيه نبي لله صلى الله عليه السلام ولم يتعمده"[2]، ويقول السعدي:"فقال موسى: (فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي".[3]

فنبي اللَّه يترك ما كان يعتقده فرعون الطاغية أنه خطأ، من خروج موسى عن ألوهية فرعون، ويعترف بأنه لم يسلك طريق الجادة المستقيمة بقتله للقبطي، ويقدم اعتذاره لفرعون بأن فعله كان عن سفه وجهل، يقول أبو حيان : " (وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) كان الاعتذار فيه أهم من الجواب في ذكر النعمة بالتربية"[4]، لأن الله سبحانه لم يكن حينها خرج به عن الضلال

---

[1]ينظر: تفسير الشعراوي (6/ 3566).

[2] تفسير ابن أبي حاتم (8/ 2755).

[3] تيسير الكريم الرحمن (590).

[4] البحر المحيط (8/ 146).

الذي يعيش فيه فرعون، فهذه الفعلة هي أثر من آثار تلك الحياة التي يحياها المجتمع الفرعوني، ونلحظ في اعتذار موسى لفرعون أنه عار من المقدمات والتفاني في تقديم الأسباب وكلمات التلطف والتودد للمعتذر منه، كما كان فرعون عارياً من المبادئ والقيم، بعكس اعتذار موسى لربه حينما تعجل للقائه، فقد قدم موسى لربه الأسباب والألفاظ المنبئة بالرغبة بقبول اعتذاره، ومحو خطئه المبني على الاجتهاد في طلب رضا الله عز وجل، كما أوضحنا في الآية السابقة في تعجُل موسى عليه السلام في لقاء ربه.

وبعد أن وقفنا على اعتذارات موسى عليه السلام، نقف على موقف آخر ترسم لنا الآيات فيه موقفاً شفيفاً حليماً ليوسف عليه السلام ، حينما يرغب إلى الملك أن يفحص أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولم يذكر امرأة العزيز ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص، فتتقدم امرأة العزيز لتعلن عن الحقيقة المقرونة بالاعتذار:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٥١﴾[يوسف:51]، وتعترف أنها هي التي راودته، فتقصر المراودة على نفسها،وتشهد له شهادة كاملةً بنظافته وصدقه، يقول محمد رضا:" (أنا راودته عن نفسه) وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني (وإنه لمن الصادقين) فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الأسمى لمن أكرم مثواه وأحسن إليه على السكوت عنه إلى الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع".[1]

ثم تتبعه بقولها:(ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) أي ذلك الإقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه، ليعلم الآن – إذ يبلغه عني – أني لم أخنه بالغيب عنه، منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملئه وهو غائب(وأن الله لا يهدي كيد

---

[1] تفسير المنار (12/ 267).

الخائنين) من النساء والرجال بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا وسجناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، فتقر بذنبها وتعترف بخطئها، وتشهد ليوسف بالصدق وإن لم تسأل عنه، إظهاراً لتوبتها وتحقيقاً لصدق يوسف ونزاهته ، وهذا منتهى الاعتراف بالخطأ. [1]

فالشرط الأساسي، والركيزة الأولى، في الاعتذار الصادق المقبول، الاعتراف بالخطأ، كيف وقد جملته امرأة العزيز، بالشهادة لخصمها بالطهر والصدق، حتى تزيل ما في نفس يوسف من آثار ظلمها، ولنا أن نعود بالذاكرة قليلاً، لمواقف اعتذارات سابقة لنا، كيف ينقى الاعتذار ما في نفوسنا، حينما يعترف المذنب بخطئه، ويزيده بالشهادة لنا بالوفاء والصدق والنزاهة عن الخطأ، فيعيد للعلاقات حياتها، وللقلوب صفائها.

ثم تردف امرأة العزيز ذلك الاعتراف، بمعاني أخري للاعتذار في قوله تعالى: (ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)، فتقرن الاعتذار بالاعتراف، أي قولي هذا وإقراري ببراءته: ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته.[2]

فمازالت تحاول إتقان الخروج من وكر الخطيئة بجميل الاعتراف والاعتذار، يقول بعض الحكماء: شفيع المذنب إقراره وتوبته اعتذاره.

ثم تكمل الاعتذار بقولها: (وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي)

يقول ابن القيم:" ثم تعتذر عن نفسها بقولها (وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي) ثم تذكر السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما

---

[1] ينظر: تفسير النكت و العيون(3/ 47) ، الكشاف (2/ 479) تفسير المنار (12/ 267).

[2] ينظر:التفسير القيم (331).

فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته[1]، وأنه إن لم يرحم عبده فهو عرضة للشر"[2].

ويقول القاسمي:"تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء، إلا نفسا رحمها الله بالعصمة، كنفس يوسف".[3]

فمرأة العزيز بعد أن اتهمت يوسف أمام الملأ تتقدم وتقر بالحق أمام الملأ وتعتذر عن ذلك غير مبالية بما يلحقها من زوجها أو من الناس، فثوب ذنبٍ ألبسته بريئاً أمام الناس فكفارته أن تنزعه عنه بالاعتذار أمام الناس، فهكذا يكون الاعتذار بمحو الخطأ وما لحقه من تبعات، فسمعة يوسف عليه السلام لن تعود إلى طهرها ونقائها إلا باعتذار امرأة العزيز أمام الملك والملأ لتقطع كل الأحاديث والشكوك الطاعنة في سمعة يوسف عليه السلام.

وبعد أن ظهر لنا اعتذار امرأة العزيز عن فعل لطالما مكرت لتحقيقه انقياداً لشهوتها المريضة، يظهر لنا اعتذار راقي من نوع آخر، اعتذار عن مقابلة الإساءة بالمثل، اعتذار عن ارتكاب الخطأ وإن كان له في ذلك حق، وذلك حينما توعد قابيل أخاه هابيل بالقتل وأقسم على ذلك ، أجابه هابيل في ذلك أحسن الجواب وأنفعه فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾[المائدة:27]، فكان رداً شافياً في بيان سبب عدم القبول من الله متضمناً للاعتذار عن القتل والمقابلة بالمثل، فكأنه قال: أنني لم أذنب ذنباً تقتلني به، ولكن ارجع إلى نفسك، وانظر في السبب فإنما يتقبل الله من المتقين، فأعرض واعتذر عن المقابلة بالمثل بعبارة موجزة، أوضحتها الآية بعدها﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

---

[1] يقول ابن القيم:" ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك. فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه، وإن أشركوا معه غيره. ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) [يوسف:29] التفسير القيم (331).

[2] المصدر السابق.

[3] تفسير محاسن التأويل (6/ 186).

ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾[المائدة:28]، فقد احترم هابيل الدماء، وحفظ حق الأخوة واعتذر عن المبادرة بالقتل.[1]

من خلال الآيات يتضح لنا:

1-أن الاعتذار من فعل لايخرج عن حالات ثلاث:

أ. إما أن يكون عن خطأ في الاجتهاد، كما في اعتذار موسى عليه السلام حينما تعجل للقاء ربه.

ب . وإما أن يكون عن غير قصد كالجهل والسفه كما في اعتذار موسى عليه السلام في قتل المصري.

ج . وإما أن يكون عن قصد فيكون عن علم ومعرفة، ولكن تغلب فيه شهوات النفس، فيُستدرك الخطأ بالاعتذار، كما في الاعتذار الصادق لامرأة العزيز، وإنما قيدناه بالاعتذار الصادق؛ لأن هناك من الأخطاء ما يقترفه الإنسان عن علم ومعرفة غلبت فيه شهوات النفس، ولكن حينما يدركه من حوله يتوارى خلف الاعتذارات الكاذبة كما سيأتي في المباحث التالية.

2 . الركن الأساسي في الاعتذار الاعتراف الصادق بالخطأ البعيد عن حظوظ النفس . فإن صاحبه حري أن يغتفر له وإن عظم جرمه . ، ويصاحبه الندم على الاقتراف ويظهر ذلك في عبارات الاعتذار والاعتراف، وما يقدمه المعتذر من الأسباب الواضحة النقية من الكذب

---

[1] ينظر:تفسير المنار (6/ 283).

كما في اعتراف موسى على نفسه بالجهل والضلال في قتل المصري، فقد كان لفظه موحياً بالندم وأن الأمر كان عن ضلال، فإنه لو لم يكن نادماً لما اعترف على نفسه بالضلال.

3 . يزداد جمال الاعتذار حينما يكسى بالأسباب الباعثة على الخطأ، كما أوضحناه في اعتذار امرأة العزيز، حينما قالت: (وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي...)، فإنه أبلغ في محو أثر الخطأ من النفوس.

4. يبلغ الاعتذار سموه حينما يرافق الاعتراف في الاعتذار، الشهادة للمعتذر إليه بحسن الخلق، فإنه يقتلع آثار الجناية والخطأ من النفوس، ونلحظ ذلك في جميل شهادة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام بالصدق والنزاهة.

5 . تختلف عبارات الاعتذار بحسب المعتذر إليه، فقد يتقدمه أو يتخلله الألفاظ والعبارات المنبئة عن الرغبة في قبول الاعتذار، كما في اعتذار موسى لله، واعتذار امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، وقد يأتي خالياً من تلك العبارات، كما في اعتذار موسى عليه السلام لفرعون فقد اقتصر على قوله: (فعلتها إذا وأنا من الضالين)، ويزداد هذا المعنى تجلياً، حينما نقارن عبارة الاعتذار عن القتل المقدمة من موسى عليه السلام لله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ١٧﴾[القصص:17.16].

فقد اعترف موسى على نفسه بالظلم وطلب المغفرة من الله، وحينما قبل الله عذره وتوسله، أخذ موسى على نفسه وعداً أن لا يعين مجرماً، كما فعل في قتل القبطي، فكان أسلوبه مفعماً بالرغبة في قبول الاعتذار، بينما عبارة الاعتذار المقدمة من موسى عليه السلام لفرعون:(فعلتها...) فهي اعتراف موح بالندم فقط على ما كان.

6. الاعتذار في الأفعال: إما أن يكون عن فعل كما في اعتذار موسى عليه السلام لله عز وجل، أو من فعل كما في اعتذار هابيل لقابيل عن القتل.

7. الاعتذار في الأفعال إما أن يكون: صريحاً كما في اعتذار امرأة العزيز، وإما أن يكون ضمناً كما في اعتذار هابيل لقابيل (إنما يتقبل الله من المتقين).

المطلب الثاني: الاعتذار من مقولة:

يكثر الاعتذار من الأقوال، وتتعدد أسبابه، ذلك أن الكلام ميدان ليس له حد، فله في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، تترجم الأقوال عن مكنون النفوس، وتغرف من بواطنها، فتكثر الفلتات والزلات، فإن سُقِط في أحدها حسُنَ الاعتذار، لتلتئم السقطة ، ويندمل الخطأ، وقد تجلى هذا النوع من الاعتذار في عدة مواضع من القرآن.

نستهل بأولها حدوثاً في هذا الكون وذلك في اعتذار الملائكة لربها حينما أتم سبحانه خلق السموات والأرض، فأعلن في الملأ الأعلى أن كائناً بشرياً سيتولى قيادة الأرض وسيكون خليفة فيها، فاستفهمت الملائكة عن هذا الاستخلاف، ظناً منها بحسب علمها أنهم سيفسدون في الأرض، والملائكة قائمة بعبادة الله، على وجه خالٍ من المفسدة، مليئاً بمحبة الله وتعظيمه وخشيته، كما حكاه سبحانه في قوله: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[البقرة:30].

فجاء البيان من الله للملائكة مجملاً: (إني أعلم مالا تعلمون)أن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم ببواطن الأمور وحقائقها، ثم مفصلاً في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾[البقرة:31]، امتحانا لهم، فعجزوا عنها، وتبين للملائكة فضل آدم عليهم، وأنهم ليسوا محيطين بكل شيء علماً، وأنهم يفوتهم أشياء يفضلهم آدم فيها، كما تبين لهم حكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة[1]، حينها قدم الملائكة اعتذارهم بقولهم: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾[البقرة:32].

اعترافاً بالعجز والقصور واعتذاراً لله بأن سؤالهم كان استفسارًا ولم يكن اعتراضاً، وأنه العليم فيما اختاره الحكيم فيما أجراه، و قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقة، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترفوا بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فالناظر إلى حسن هذا الجواب، يرى براعة اعتذار الملائكة لله، فقد استهلوا بتنزيه الله عز وجل عن الجهل والاعتراف بكماله، وإن كان الاعتذار يحصل بقولهم (لا علم لنا إلا

---

[1] ينظر: الكشف والبيان (178/1)، الضوء المنير (193/1)، تيسير الكريم الرحمن (48)، تفسير العثيمين (1/ 119).

ما علمتنا)، إلا أنهم استهلوا اعتذارهم بتنزيه الله عز وجل، ثم نفي العلم عنهم، وفي ذلك ملازمة لجانب الأدب العظيم مع الله عز وجل، ثم أنهم أجابوا بنفي العلم بلفظ (لا) التي سيقت معها النكرة (علم)، فاستغرق كل فرد من أنواع العلوم ، ثم استثنوا من ذلك ما علمهم الله تعالى ، فقالوا : (إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا) ، وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام للمعلم الأول سبحانه، و في التذلل والخضوع والافتقار إلى الله والاعتراف بعظمته وكماله. [1]

بعد أن تجلى لنا إنموذجاً لاعتذارٍ ينضب أدباً، اعتذار الملائكة لربها عن مقولة، ما أرادوا بها إلا خيراً وتقرباً إلى الله عز وجل، يكشف لنا القرآن عن صورة أخري من الاعتذار عن مقولة مجانبةً لسابقتها.

صورةٌ من اعتذار المنافقين عن أقاويلهم بعدما فضحهم القرآن، فقد كان المنافقون في المدينة يثبطون المؤمنين عن الجهاد ببث التخاذل فيهم، والاستهزاء بهم في مجالسهم، ويتهكمون فيهم، وإذا خرجوا إلى الجهاد حاولوا تثبيطهم ببث روح الفشل فيهم، أو بالتهكم اللاذع، واستصغار شأن المؤمنين، وقد جاء في مقالتهم: أنه بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك، قال بعضهم: (والله إنهم أرغبنا بطونا، و أخشانا عند اللقاء، وأضعفنا قلوبا)[2]،يقصد بذلك ركب المؤمنين في غزوة تبوك، ففضحهم الله عز وجل، وأخرج ما استكن وخفي في قلوبهم، عندها قدّم المنافقون اعتذارهم، وهذه حال المنافقين إذا فضحهم القرآن بجريمة من جرائمهم المنكرة، أو لامهم لائم على ما انكشف من مستور تدبيرهم السيئ،

---

[1] ينظر: أنوار التنزيل (1/288)، البحر المحيط (1/297)، التحرير والتنوير(1/421).

[2] أخرجه الطبراني في الكبير(19/ 86)، وقال الشيخ مقبل الوادعي في المسند الصحيح (108): " الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في الميزان، وأخرجه الطبري من طريقه 172/10 وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم ج4 /64 من حديث كعب بن مالك".

برسول الله وبالمؤمنين بالله، تقنعوا بقناع الخجل وتخمروا بخمار الأعذار الباهتة الساقطة كعادتهم، فقالوا ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ ٦٥﴾، أي لم نكن جادّين فيما كنا فيه، وإنما هو لعب وعبث، ومفاكهة! إنه لعذرٌ أقبح من ذنب، فلم يجدوا ما يستروا به نفاقهم، سوى اعتذارا بالكذب، مليئاً بالتبجح، خالياً من الندم والاعتراف بالخطأ، عارياً من المقدمات وكلمات التلطف، الموحية بصدق الاعتذار، والندم على ما كان، وقد كان اعتذارهم معلوم الكذب بيِّن البطلان، وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يردّ عليهم، وأن يسفّه باطلهم الذي هم فيه، وأن يفضح عذرهم المفضوح الذي اعتذروا به ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾[التوبة:65]، وسنقف على ذلك في مبحث الاعتذار المقبول والمردود.[1]

بعد أن وقفنا على موقفين متباينين في الاعتذار عن مقولة، نقف على موقفٍ ثالث يشترك فيه الاعتذار بين القول والفعل، وتتنازع فيه قوى الخير وغوائل الشر في النفس الإنسانية، فأصحاب الجنة في سورة القلم تغلب عليهم شهوة حب الدنيا والتعلق بالمال، فيقسموا على أن يحرموا المساكين من جنة أبيهم التي امتلكوها بالإرث، بعد أن كان للمساكين في حياة أبيهم النصيب الأكبر من الجنة[2]، فيخرجوا إليها في الصباح الباكر بعيداً عن أعين الناس حتى أنهم يتسارّون فيما بينهم، حتى لاينتشر أمرهم، فيعلم الفقراء بذلك، فبينما هم على هذه القسوة، جازمين بقدرتهم عليها، إذ بالمفاجئة التي لم تخطر بخلد ولا تصدق بها عين، فياالخيبة الأمل، بستان كان بالأمس زاهراً عامراً بالخير، أصبح اليوم قاعاً صفصفا، تبدلت معالمه وتغيرت رسومه، حتى شكوا فيه، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦﴾[القلم:26]، فلما تحققوا منها علموا أنه قد أصابهم غضب الله، بمنعهم وقسمهم أن لا ينال المساكين والمحتاجين

---

[1] ينظر: جامع البيان (14/ 333)، تفسير المنار (10/ 455)، التحرير والتنوير (10/ 251)، التفسير القرآني للقرآن (5/ 834)، زهرة التفاسير (6/ 3360).

[2] ينظر: تفسير عبد الرزاق (3/ 332)

من بستانهم فرجعوا يلوم بعضهم بعضا﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾[القلم:31]، تحسراً وتندماً على ما كان منهم، عندها أشار عليهم أرجحهم رأياً و عقلاً، بالتوبة والرجوع إلى الله والاعتذار إليه، قالوا:﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾[القلم:29]،فرجعوا إلى الله وتابوا إليه واعترفوا على أنفسهم بالظلم، والتجاوز في حق الله[1]، يقول القاسمي:" قوله تعالى : (سبحان ربنا.........)أي متجاوزيين حدود الله تعالى في تفريطنا وعزمنا السيّئ عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها أي بتوبتنا إليه، وندمنا على خطأ فعلنا، وعزمنا على عدم العود إلى مثله".[2]

فقد سبّحوا الله عز وجل ونزهوه عن أن يعصى أمره في إعطاء حق المساكين فإن من أصول التوبة تدارك ما يمكن تداركه، ، وهذا التنزيه منهم لله مقدمة لاستغفارهم من ذنبهم، فالتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾[النصر:3]، ثم أظهروا ندمهم واعترافهم على مقولتهم ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤﴾[القلم:24]، وعزمهم على ذلك الفعل الشنيع، واتبعوا ذلك بالعزم على عدم العودة لمثل ذلك الذنب، وهذا أكمل وجوه الاعتذار، يقول الراغب الأصفهاني: "التَّوْبُة: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإنّ الاعتذار على ثلاثة أوجه: إمّا أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول:فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتَّوْبَةُ في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة".[3]

---

[1] ينظر: جامع البيان (23/ 551)، تفسير المراغي (29/ 37)، التحرير والتنوير (29/ 87)، التفسير القرآني للقرآن (15/ 1101).

[2] محاسن التأويل (9/ 301).

[3] المفردات في غريب القرآن (169).

من خلال آيات الاعتذار يتضح لنا:

1 . أن الاعتذار من قول لا يخرج عن حالات ثلاث:

أ . إما أن يكون عن خطأ في الاجتهاد، كما في اعتذار الملائكة عليهم السلام.

ب . وإما أن يكون عن غير قصد، كالنسيان كما في اعتذار موسى للخضر عليهم السلام، وسيأتي بيانه في المطلب الرابع من هذا المبحث.

ج . وإما أن يكون عن قصد فيكون عن علم ومعرفة، ولكن تغلب فيه شهوات النفس، فيُستدرك الخطأ بالاعتذار، كما في اعتذار أصحاب الجنة في سورة القلم.

2 . الركن الأساسي في الاعتذار المقبول الاعتراف بالخطأ . و ذلك من فضائل الخصال الملائكية . كما ظهر في اعتذار الملائكة لربها، ونلمس ضده في اعتذار المنافقين حينما تخفوا بأعذارهم الكاذبة، فرد الله عليهم اعتذارهم.

3 . أن من اللباقة والسمو في الاعتذار أن يتقدم الاعتذار لله تسبيح الله وتنزيهه، امتثالاً لأمر الله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٣﴾[النصر:3]،فالتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب، واقتداءً بأنبياء الله، كما في اعتذار موسى عليه السلام : ﴿ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾[الأعراف:143].

4 . يقصد الاعتذار لمحو الخطأ و آثاره، فتكون كلماته وعباراته مليئة بالاعتراف مشعرةً بالندم على الخطأ (وهذا الاعتذار الصادق)، و قد يقصد الاعتذار لتّخفي من قباحة الذنب وشناعته، لا رغبة في محو الخطأ، فتظهر عليه اعترافات كاذبةً بعيدة عن الندم (وهذا الاعتذار الكاذب).

5 . أن من تمام الاعتذار العزم على عدم العودة للخطأ، واستدراك ما يمكن استدراكه، كما حصل من أصحاب الجنة.

6 . قد يكون الاعتذار عن قولٍ وفعلٍ معاً، لنبوع الخطأ من كليهما، كما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

7 . اللسان له مزالق خطيرة . فلا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه . قد لا ينفع معها الاعتذار، فينبغي الحذر والتنبه لذلك ، وقد تجلى ذلك بخروج المنافقين من الدين بكلماتهم الساخرة، والواقع يشهد لذلك، فبعض الكلم وإن لم يمس الدين إلا أن جُرحه يقع في القلب، فيصعب استخراجه إلا بعد مدةٍ طويلة، حتى وإن قُبِل فيه الاعتذار.

المطلب الثالث: طلب ما لا يليق:

قد تضطرب الأحوال، وتهيج الأفكار، فتستنطق غلبات النفس الأسلات، راغبةً خيرا أو قاصدةً شرا، بطلب ما لا يليق، فلا يقيلها إلا الاعتذار.

فنوح عليه السلام عندما أهلك الله من عصاه بالطوفان، وجاء الأمر الإلهي للأرض والسماء بالتوقف عن انهمار الماء، واستوت السفينة على الجودي، استيقظت في نفس نوح عليه

السلام لهفة الأب المفجوع و نادى ربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾[هود:45]، وجاء الرد من ربه: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾[هود:46]، حينها ارتجف نوح عليه السلام ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويقدم اعتذاره، ويطلب غفرانه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾[هود:47].

فمع ما كان عليه طلب نوح عليه السلام لربه عزّ وجل، من جميل الاحترام و رد الأمر إلى حكمة الله سبحانه، وأنه أحكم من كل من يتصور منهم الحكم، وأحسنهم وخيرهم، لأنه سبحانه وتعالى حكمه لا يصدر إلا عن كمال العلم والعدل، فلا يعرض له الخطأ ولا المحاباة، ولا الحيف والظلم، إلا إنه حينما أحس نوح عليه السلام بزلته و اتضح له خطأ اجتهاده بنيته الصالحة، في طلب ما لا يليق طلبه من الله عزّ وجل، سارع إلى الله بالتوبة وأناب إليه بالرجعة من الهفوة، وكذلك فعلُ كل مسدَّد للحق موفَّق له، سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوْبته، وقد أبدع نوحٌ عليه السلام في نظم الاعتذار، بإيجازه من غير إخلال، فاشتمل على الاعتراف بالخطأ، والندم على ما كان، وطلب العفو من الله،[1] وفي ذلك يقول ابن عاشور: "وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف وتأدية لها

[1] ينظر: جامع البيان(1/ 492)، مفاتيح الغيب(18/ 359)، تفسير المنار (12/ 70).

ملخصة مبينة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تطابق معانيها ومعانيها تطابق ألفاظها".[1]

وقد كسا نوح عليه السلام الاعتذار حلة جديدة، حينما قدم استجارت بالله سبحانه وتعالى من أن يطلبه في المستقبل مالا علم له بصحته تأدباً مع الله واتعاظاً بموعظته سبحانه، على طلب العفو عن الماضي، مما طبع على اعتذاره طابعاً خاصاً و واضحاً في الدلالة على الندم، والعزم على عدم العودة إلى ما كان، ثم أردفه بطلب العفو عما مضى من السؤال الذي سولته له رحمته الأبوية، وطمعه برحمة الربانية، وختمه بطلب القبول، ثم حكم على نفسه بالخسران فيما حاول الربح فيه، من نجاة أولاده كلهم وسعادتهم بطاعة الله عزّ وجل إن لم تقبل الله منه،[2] وهذا الاعتذار هو عين الاعتذار الذي حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:23]، وهذا ما سنورده في اعتذار آدم عليه السلام.[3]

ويشابه نوحٌ موسى عليهما السلام في طلب ما لا يليق طلبه من الله، مع اختلاف الأحوال والدوافع في ذلك، فالدافع لنوح عليه السلام الشفقة على ابنه و رحمته الأبوية مع اجتهاده

---

[1] التحرير والتنوير (12/ 83)

[2] ينظر: جامع البيان(15/ 352)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (2/ 65)، تفسير المنار (12/ 72)، تيسير الكريم الرحمن (382).

[3] مفاتيح الغيب (18/ 360).

عليه السلام أن طلبه لائق من الله، فلما تبين له خلاف ذلك بادر إلى الاعتذار أما في موسى عليه السلام فالحب المفعم لله كان هو الدافع في ذلك، فقد جاء موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، مجيء المشتاق، جاء موسى بلا موسى، آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خطى خطوات فإلى القيامة يقرأ الناس: (وَلَمَّا جاءَ مُوسى)، فلما سمع خطاب الله، لم يتمالك نفسه حتى قال: (أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)، فأشدّ الخلق شوقا إلى الله أقربهم منه سبحانه، فهذا موسى عليه السّلام، واقفا في محل المناجاة، محدقة به سجوف التولي، ثم في عين ذلك كان يقول: (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) كأنه غائب عن الحقيقة، ولكن ما ازداد القوم شربا إلا ازدادوا عطشا، ولا ازدادوا تيما إلا ازدادوا شوقا، فأجاب سبحانه وتعالى كليمه، إجابة مليئة بالتلطف: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ١٤٣﴾[الأعراف:143]، فأخبره سبحانه أنه لن يستطيع رؤيته، وقرب له ذلك المعنى حينما تجلى سبحانه للجبل، وبزغ عليه النور الإلهي، فتحول قاعاً صفصفا، فثار الفزع في نفس موسى عليه السلام، كأنما أصابته صاعقة، وغُشي عليه، فلمَّا أفاق أحسَّ بأنه طلب ما لا يليق، وما لَا يتحقق في الدنيا فاستغفر ربه، وسبحه، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ١٤٣﴾[الأعراف:143]، واعتذر موسى عليه السلام من هذا الطلب الذي تبين له أن الله لَا يجيبه في الدنيا، وما كان ذلك خطيئة ارتكبها، ولكنه خطأ، والنفس المؤمنة التي تحس تستكثر خطأها، وتستقل صوابها، أحس أنه ذنب يتاب منه، وما هو بذنب، وكذلك استتابة المرسلين تكون من أخطاء تغتفر، بل لَا حساب عليها،

ولكن يعظم أمرها في نفوسهم فيتوبون، وصدَّر اعتذاره بالتسبيح، تنزيهاً لله عمَّا لا يليق بجلاله، وتعظيماً له، وأكد عليه السلام اعتذاره، فقال: (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)، أي ببعدك عن الشبيه، وأنك منزه عن كل نقص، وأول المؤمنين بأنك لَا تُرَى في هذه الدنيا، فقبل الله اعتذاره، وأعطاه خيرا كثيرا[1]: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[الأعراف:144].

واستقصاءاً للاعتذار من طلب ما لا يليق طلبه من الله في القرآن، يظهر لنا موقف آخر مناقض لما قبله في دوافعه، ففي المواقف السابقة استنطقت غلبات النفس، لترتقي في معارج الخير، أسلات الأنبياء في طلب ما لا يليق طلبه من الله، اجتهاداً منهم في جوازه، وفي الموقف التالي استنطقت غلبات النفس الأمارة بالسوء، النفوس الشرسة لبني اسرائيل، ففي قلوبهم قسوة، وفي نفوسهم جفوة، وعقولهم غُلْف لا تنفتح للحق، ولا تذعن له، ظهرت آيات الله وقامت بيناته، أتتهم آيات الحق والمعجزات، فكذبوا بها وطلبوا غيرها، وتعنتوا وتمردوا، حتى إذا غاب عنهم موسى عليه السلام للقاء ربه، واخلف عليهم هارون عليه السلام، نقضوا الميثاق، وعبدوا العجل، فلما رجع إليهم موسى عليه السلام غضب عليهم وعاتبهم، فتابوا

---

[1] ينظر: تفسير القرآن العظيم (3/ 311)، لطائف الإشارات (1/ 565)، تيسير الكريم الرحمن (302)، زهرة التفاسير (6/ 2946).

من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به، واختار منهم موسى عليه السلام سبعين رجلاً من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاتا يحضرون فيه، فلما حضروه، قالوا: (أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) فتجرئوا على الله جراءة كبيرة، وأساءوا الأدب معه، وأبعدوا في الوقاحة والتحدي، فطلبوا من الله سبحانه وتعالى ما لا يليق طلبه، فعاقبهم الله سبحانه على هذا، وأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فهلكوا، ولم يزل موسى عليه الصلاة والسلام، يتضرع إلى الله ويتبتل ويقول:(رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ)، من قبل أن يحضروا ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين، أتهلكنا بما فعل ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا،[1]، وفي ذلك يقول ابن القيم" يقول موسى عليه السلام: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل، وهذا كما يقول من واخذه سيده بجرم: لو شئت واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولا، فليسعني اليوم".[2] ويستمر موسى عليه السلام، في الاعتذار لله عزّ وجل عن قومه، بأن ما حصل لهم فتنةً جعلته سبحانك، سبباً لظهور ما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية، وما يستحقون عليه من عقوبة

---

[1] ينظر: تفسير القرآن العظيم (1/265)،المحرر الوجيز(2/ 459)،محاسن التأويل (5/ 191)، تيسير الكريم الرحمن (303)، التفسير القرآني للقرآن (3/ 960)، زهرة التفاسير (4/ 1955).

[2] إغاثة اللهفان (2/ 307)

ومثوبة، وسنتك في جريان مشيئتك في خلقك بالعدل والحق، والنظام الحكيم في الخلق، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك، ولست بظالم لهم في تقديرك، وتهدي من تشاء ولست بمحاب لهم في توفيقك، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل، ولك الخلق والأمر، أنت المتولي لأمورنا، والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك، أو التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك، بأن تستر ذلك علينا، وتجعله بعفوك كأنه لم يصدر عنا، وارحمنا برحمتك الخاصة فوق ما شملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة، وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا فلا يتعاظمك ذنب، ولا يعارض غفرانك ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى، فأجاب الكريم اعتذار موسى عليه السلام عن قومه، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم.[1]

من خلال ما مضى من الآيات يتضح:

---

[1] ينظر: تفسير المنار (9/ 189).

1 . أن الاعتذار من طلب ما لا يليق إما أن يكون عن اجتهاد بنية صالحة كما في طلب نوح وموسى عليهما السلام، وإما أن يكون عن تعنت وعناد وسوء أدب كما في طلب بني اسرائيل.

2. أن من أسباب قبول الاعتذار المبادرة إليه، عندما يتضح الخطأ، كما اتضح لنا من حال الأنبياء في الآيات السابقة، فقبل الله اعتذار نوح عليه السلام و هبط نوح عليه السلام إلى الأرض، يصحبه السلام والبركة من الله، مسلماً من المكاره، ومباركاً عليه، وقد شملت البركة من كان معه في السفينة﴿قِيلَ يَٰنُوحُ اهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾[هود:48]، وقبل الله عزّ وجل اعتذار موسى عليه السلام، وأعطاه خيرا كثيرا : ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي اصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[الأعراف:144]، فعفا الله عن زلتهما، وأفاض عليهم من جوده، وهذا شأن الكريم سبحانه، فقد أفاض عليهم من بحار جوده ما هو فوق العفو عنهم.

3. كسا نوح عليه السلام الاعتذار حلة جديدة، وتفرّد بها في القرآن، حينما قدم المستقبل على الماضي في اعتذاره، فاستجار بلطف الله فيما هو آت، ثم اعتذار عما فات، مما يدل دلالةً أكيدةً و واضحةً على صدق الندم، والعزم على عدم العودة على ما كان منه.

4. قد ينوب في الاعتذار من له وجاهة أو قائد القوم، استشفاعاً بوجاهته، أو لتعذُّر الاعتذار على المعتذر، كما كان من موسى عليه السلام حينما هلك قومه، كما بيّناه.

5. استعطاف المعتذر من المعتذر منه، في بيان الأسباب استجداءً للعفو والقبول، كما في اعتذار موسى عليه السلام عن قومه.

المطلب الرابع: الاعتذار بالنسيان.

كفيلة الأيام بتعرض الإنسان للنسيان،إما بسبب إعراض وعدم مبالاة، فيخرجه عن الصواب ويوقعه في الملام، وإما بحكم الطبيعة البشرية، فلا لوم فيه على الإنسان، إلا إن النسيان جندٌ من جنود إبليس، قد يأخر به منفعة أو يفسد به مصلحة، فحريٌ بالإنسان أن يبادر بالاعتذار ليصلح ما كان، ولهذا النوع من الاعتذار صورٌ في القرآن،جاءت متكررةٌ في سورة

الكهف، التي زخرت بكثيرٍ من المعاني، في قصص هادفة لم تتكرر في القرآن، لتصحيح المفاهيم، وتأصيل القيم.

ففي قصة موسى عليه السلام مع فتاه، يقدم الفتى اعتذاره بالنسيان، خروجاً من الخطأ الذي وقع فيه، ذلك أن موسى عليه السلام أراد أن يطوف في الأرض للقاء من هو أعلم منه، للاستزادة من العلم، وقد كانت رحلة مليئة بالعجائب، يكسوها الإصرار والعزيمة الصادقة في طلب العلم، مهما كلفه الأمر من عناء ومشقةٍ، ومهما أمضى من وقت في سبيل هذا المقصد السامي﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ٦٠﴾[الكهف:60]، فانطلقا موسى وفتاه، وإنما سمي فتى موسى لأنه كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه، . وقد لقّن فتاه الهمة العالية في طلب العلم .، إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، فلمَّا بلغا مجمع البحرين جعلا يسيران فيه، والماء مثل الطاق لا يلتئم بعدهما، و كان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فثم ذلك العبد الذي قصدته، فلمَّا وصلا إلى ذلك المكان، أصاب الحوت بلل البحر، فنسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيا، ونسي فتى موسى عليه السلام أن يخبر موسى عليه السلام بذلك، فلما جاوزا ذلك المكان المقصود من مجمع البحرين، سارا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغداة وارتفع النهار أحس موسى عليه السلام بالجوع، حينئذ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا تعبا ونصبا من ذلك السفر، وقد كان من الحكمة الربانية حصول الجوع والتعب له حين جاوز

المكان، ليطلب الغداء، فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد، حينها قدم فتى موسى اعتذاره ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾[الكهف:63]، أي أرأيت حين التجأنا إلي الصخرة وأقمنا عندها[1]، وذكر الإيواء تمهيداً للعذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها مما يؤدي إلى النسيان عادة، والرؤيةُ مستعارةٌ للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملةِ، ومرادُه بالاستفهام تعجيبُ موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى، وقد جُعل فقدانُه علامةً لوجدان المطلوب، ثم قدّم اعتذاره عن النسيان بشغل الشيطان له بوساوسه، وإلقاء الخواطر في قلبه، بجملة اعتراضية بين المعطوف و المعطوف عليه، فقوله تعالى: (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً)، تتمة لقوله (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ)، وما بينهما (وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ) اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار، و هكذا بادر الفتى بالاعتذار من النسيان الذي ألم به من الشيطان، فذهب بفكره كل مذهب، حتى اعتراه النسيان، علّهُ يحظى بتأخير المصلحة وإن لم يستطع إلغاءها، فتقبّل موسى عليه السلام اعتذاره بصدر رحب، وتداركا الأمر بالرجوع على إثرهما للمكان لتدارك المصلحة.[2]

---

[1] وذكرُ الإِواءِ إليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغُ مجمعِ البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فإن المجمع محلٌ متسعٌ لا يمكن تحقيقُ المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه. إرشاد العقل السليم (5/ 233).

[2] ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (2/ 594)، جامع البيان(18/ 65)، الكشاف (2/ 733)، مفاتيح الغيب(21/ 480)، الجامع لأحكام القرآن(11/ 12)، بحر العلوم (2/ 353)، أنوار التنزيل (3/ 287)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (2/ 310)، إرشاد العقل السليم (5/ 233)، روح المعاني (8/ 299)، التحرير والتنوير (15/ 359).

لا زلنا نتنسم من شذى روض سورة الكهف، ونقتطف من جناه، فبعد اعتذار فتى موسى بالنسيان، وقبول موسى عليه السلام له، تستمر الأحداث، ويلتقي موسى بالخضر عليهم السلام، ويسأله أن يتبعه ويتعلم منه، سؤال تلطف لا على وجه الإلزام و الإجبار، فيقبل الخضر ذلك، ويشترط على موسى الصبر وعدم السؤال عن شيء أنكره حتى يحدث له منه ذكرا. وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع.، فيقبل موسى عليه السلام شرط الصحبة مستعيناً بالله عزّ وجل، وقد أوتي الخضر عليه السلام جانب من العلم اللدني[1]، أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده، و علم الخضر أنه لا طاقة لموسى عليه السلام بالصبر على ذلك، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فحملوهم بغير نول فلما دخلوا إلى لُجج البحر خرق الخضر السفينة حتّى دخلها الماء، فاندفع موسى عليه السلام مستنكراً الأمر(أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها)، ونسي عليه السلام ما قاله هو وما قاله صاحبه، أمام هذا التصرف العجيب، ولم يستطع الصبر، فهذه توجب أن ينسى الإنسان ما سبق لشدة ما يقع في النفس، و بصبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قال منذ البداية، فيقدم من استجمعت فيه موجبات الشرف اعتذاره بتواضع المؤمن، ويعتذر بنسيانه لوعده لهول ما رأى، وأن هذه هفوة فتجاوز لى عنها، و خذني برفق، ولا تشتدّ عليّ[2]، يقول

---

[1] يقول ابن القيم:"والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم". مدارج السالكين(2/ 446).

[2] ينظر: لطائف الإشارات(2/ 408)، تفسير القرآن العظيم(5/ 182)، الكشاف (2/ 735)، الجامع لأحكام القرآن(11/ 18)، تيسير الكريم الرحمن (482)، التفسير القرآني للقرآن (8/ 654).

ابن عاشور:" اعتذر موسى بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره، و النهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة، لأنه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر، فالحزامة الاحتراز من صحبة من يطرأ عليه النسيان، ولذلك بُنِي كلام موسى عليه السلام على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يُبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار"[1]، وهكذا يقدم موسى عليه السلام اعتذاره بعزة المؤمن وتواضعه، فيصحح مساره وتستمر صحبته للخضر عليهما السلام، ويمتثل النهج القويم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، حينما سها في الصلاة، فاستفهم القوم عن التغير الذي حدث في الصلاة، فأقبل عليه السلام عليهم بوجهه واعتذر لهم عن النسيان الذي حدث في الصلاة، وقال:(إنما أنا بشرٌ مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)[2]، فيعترف بالنسيان، ويعتذر عنه بالطبيعة البشرية التي جبلت على الإنسان. وهكذا الشريعة الربانية تُأصل القيم والمعاني السامية، بأمثال واقعية ونماذج بشرية، تتلاشى فيها الفروق وتثبت المعاني، فيعتذر الخادم للنبي، ويعتذر النبي للعبد الصالح، ويعتذر النبي للقوم، بعزة المؤمن وشموخه، من غير أن ينقص من قدره، أو يحط من قيمته.

---

[1] التحرير والتنوير (15/ 376).

[2] الحديث: رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان(ح/401)، ورواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهوفي الصلاة والسجود له(ح/ 572).

بما أننا تعرضنا لاعتذار الأنبياء بالنسيان، كان من المناسب أن نشير أن وقوع النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان لا خلاف في جوازه قال تعالى لخاتم أنبيائه (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ) وقال موسى عليه السلام:(لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ) ولكن الله عصمهم من نسيان شيء مما أمرهم بتبليغه كإضاعة فريضة أو تحريم حلال أو تحليل حرام، وإنساء الشيطان للإنسان بعض الأمور ليس من قبيل التصرف والسلطان حتى يدخل فى مفهوم قوله: ﴿ إِنَّهُ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾[النحل:99].

ومن هذا نعلم أن النسيان، لا يعد من سلطان الشيطان على الناس واستحواذه عليهم بالإغواء والإضلال الذي نفاه الله عن عباده المخلصين، لكن يحسن أو يجب في بعض الحالات الاعتذار منه، لكونه ضارا أو مفوّتا لبعض المنافع.[1]

شذرات في الاعتذار من خلال الآيات السابقة:

1. جاءت نصوص القرآن بأمثلة واقعية، تخاطب العقل وتلامس الحس، لتربي الإنسان على المبادئ السامية، التي تستوي فيها البشرية وإن علت مقاماتهم، فنجد في النصوص السابقة

---

[1] ينظر: تفسير المراغي (7/ 160).

أمثلة واقعية في الاعتذار تنوعت فيها الشخصيات وثبتت فيها المبادئ فاعتذر الخادم للنبي، واعتذار النبي للعالم، واعتذار النبي للقوم.

2. النسيان من الإنسان أمرٌ جبلي، ولكنه جندٌ من جنود إبليس، يحسن الاعتذار منه، لتدارك ما وقع منه من مفسده، أو ضاع به من مصلحة.

3. أن المبادرة بالاعتذار سبباً لقبوله، كما بادر فتى موسى بالاعتذار من نسيانه، فعفا عنه موسى عليه السلام، بالرغم من تأخر المصلحة المتعلقة بذلك.

4. يجدُر التلطف في الاعتذار من النسيان، خاصة في الأمور التي يصعب الاعتذار فيها بالنسيان، كالأمور المتعلقة بالمصاحبة لما يترتب عليه من مفاسد، كما سبق بيانه من كلام ابن عاشور.

5. أن الاعتذار من صفات النبلاء، يزداد به جمال النفوس، وتدوم به العلاقات، كما أن قبوله من صفات الكرماء، قبله موسى من فتاه وقبله الخضر من موسى عليهما السلام.